

بين اللفظ والمعنى

بقلم أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

(١)

لسنا نريد في هذه الكلمة السريعة أن نحيط بجميع ما كتبه نقاد الغرب عن اللفظ والمعنى، وقيمة كل منهما في درجة الفن الأدبي وجماله، كلا . ولسنا نحاول الإلمام بالإجمالى بشيء من ذلك، إذ كان متناثراً في ثنايا الكتب والسطور مضطرباً لا يخضع لوحدة موضوعية أو أسلوبية . وذلك كله يحتاج إلى بحث خاص يجمع شتاته، ويسلكه في نظام علمي حديث لا تتسع له صفحات هذه الصحيفة العتيدة . ولكننا نحب أن نقف هنا وقفة الطائر على رأيين واضحين، عرض لهما اثنان من رجال البلاغة والنقد الأدبي قديماً، هما ابن قتيبة أبو محمد عبد الله ابن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « الشعر والشعراء »؛ ثم الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في « أسرار البلاغة » . وهذان الرأيان قد اختلفا في نقطة خطيرة جد الخطورة، من حيث اتصاهما بعناصر الأدب، وقيمة كل عنصر من الناحية الفنية . ثم طريقة فهم الأدب ورده إلى نواحي جودته عند العرب القدماء، وعند الفرنجة المعاصرين .

(٢)

يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه : « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه، كقول القائل :
في كفه خيزران ريحه عبق من كف أرؤع في عرينه شمم

يغضى حياء ويغضى من مهابة فما يُكلم إلا حين يتسم
لم يقل أحد في الهية أحسن منه .
وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت قششته لم تجد هناك طائلا ، كقول
القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالآركان من هو ماسح
وشدّت على حذب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو راع
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح
وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع ، فإذا نظرت إلى ما تحتمل
وجدته : ولما قضينا أيام منى ، واستلنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى
الناس لا ينظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح .
وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غدّوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن ، وقلن لى : ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ ،
إلى آخر ما أورد فى مقدمته هذه من الأضرب والأمثلة .

ويجب أن نقف هنا قليلا لنسجل على ابن قتيبة أنه أرجع الشعر إلى عنصرين
أو ركنين اثنين : اللفظ والمعنى ، وأنه جعل المعنى قسيما للفظ يتناول ماسواه بما
يفهمه الإنسان أو يشعر به حين يقرأ الشعر ، أو بالأحرى حين يقرأ الأدب ،
إذ كان الشعر هو الفن الأدبى الممتاز . ثم نعود فنسأله هذا السؤال الذى لا ننتظر
الإجابة عنه الآن : أهنالك حقا فرق يتصل بعناصر الأدب بين مثاله للضرب الأول
ومثاله للضرب الثانى ؟

(٣)

فلما جاء الجرجاني ظهرت فى كتابه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ،
قوة عنيفة فى مناقشة الأقدمين ، تنتهى هذه القوة إلى رأى خطير : هو أن البلاغة
أو القيمة الفنية فى الأدب ، ترجع إلى تكوين الألفاظ على وفق المعانى ، وما

تقتضيه هذه من نظام وتعبير ؛ وذلك هو ما يسمى عند النقاد المحدثين بالأسلوب « Style » . ولما عرض لشرح هذه الآليات السابقة - أو بعبارة دقيقة لتحليلها إلى عناصرها الأدبية - على هذا الأساس الذى شرحه فى كتابيه شرحاً شافياً ، رأيناه يختلف عن ابن قتيبة اختلافاً واضحاً وخطيراً . وكأنه يرد بذلك على ابن قتيبة وأضرابه بمن يمسخون الشعر ، ويعقونه حين يفسرونه تفسيراً سقيماً مسلوب الروح ، يحيا فقط بهيكل عظمى جردته الجاهل الفنية من أعصابه وعضلاته ، إذ يقول الجرجاني :

« وذلك أن أول ما يتلقاتك من محاسن هذا الشعر أنه قال :

« ولما قضينا من منى كل حاجة »

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله :

« ومسح الأركان من هو ما مسح »

على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو المقصود من الشعر . ثم قال :

« أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا »

فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان . ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء . وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وفضل الاغتباط ، كما توجه ألفه الأصحاب ، وأنسة الأُحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأُحبة والأوطان ، واستماع التهاني والتحيات من الخلان والإخوان . ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق بها مفصل التشبيه . وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرح أولاً بما أوما إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ،

وفي حالة التوجه إلى المنازل . ثم قال : « بأعناق الجبى ، ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران في أعناقها . . . الخ (١) » .

فاذا أردنا فهم كلام الجرجاني بما تقتضيه قوانين النقد الحديث ، ثم وازنا بينه وبين ابن قتيبة فيما يريدان من كلمة « المعنى » استطعنا أن ندون النتائج الآتية : —
أولها — أن عبد القاهر الجرجاني فهم من كلمة المعنى أموراً أخرى لم يفتن لها ابن قتيبة ومن لف لفه ، إذ أن الجرجاني أخذ يذكّر لنا أنواعاً من الكناية والاستعارة والتشبيه والمجاز ، هي في الواقع صور شتى لقوة المعنى وجماله ، كما يعرف ذلك من له إلمام بالفنون البيانية في علم البلاغة العربية ، وهذه الصور هي في الواقع عنصر أدبي قيم ، يسمى في النقد الحديث : عنصر الخيال « Imagination » .

ثانيها — أن الجرجاني أشار كذلك إلى هذا الشعور الذي ملك نفس الشاعر حين تصور الحاج عائد إلى أوطانهم بعد قضاء المناسك ، فرحين راجين المثوبة وحسن العقبى ، وهذا الشعور القوي أثار في نفس الشاعر روعة صورها في شعره حتى إذا قرأه الجرجاني انتقل هذا الشعور إلى نفسه فولد فيها عاطفة تشبه عاطفة الشاعر نفسه ، وهذه العاطفة عنصر أدبي هام في الأدب يسمى عند الانجليز : Emotion « أى انفعال أو عاطفة » .

ثالثها — أن ابن قتيبة وقف في شرحه الآيات عند المعنى الحرفي ، أو الفكرة الأولى التي تعد أهون مافي الشعر من معنى ، وأدنى ما يؤديه من غاية ، وليس من شك عندي أن الجرجاني يعرف هذا أيضاً ، ولكنه عزف عنه ساخراً منه ، إذ كان شيئاً ثانوياً غير مقصود في فن الشعر ، إلا على أنه هيكل عظمي أو حجارة يعلوها النقش والتصوير .

رابعها — أنه يظهر لنا أن ابن قتيبة لم يوضح ، أو لم يتضح في ذهنه ، ما هو مقصود بالمعنى عند الأقدمين أنفسهم ، بدليل الأمثلة التي أوردها للضرب الذي

جاد معناه وقصر لفظه ، فينا نراه يريد من المعنى الجيد حكمة أو حقيقة كقول لبيد :

ما عاتب الحرَّ الكريمَ كَنَفْسِهِ والمرءُ يصلحه المجلسُ الصالحُ
إذ نراه يريد من المعنى الجيد تشبيهاً سديداً محكماً كقول الفرزدق :
والشَّيْبُ يُنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصْبِحُ بِجَانِبِهِ نَهَارٌ .
فما الرأي في ذلك كله ؟

(٤)

يظهر أننا لانستطيع الفصل في هذا الخلاف ، ووضع الأمر في نصابه العلمي والفني معاً ، دون أن نوضح شيئاً من هذه الأصول النقدية الحديثة ، التي تتصل بموضوع اللفظ والمعنى ، وهذه الأصول ليست في الغالب شيئاً غريباً على قراء النقد العربي القديم ، إلا من حيث هذه المصطلحات التي تواضع عليها النقاد المحدثون في الأمم الغربية .

يقوم النقد الحديث على أن للأدب عناصر أربعة ، يمكن أن ينحل إليها النص الأدبي ، وليس من شك أن هذه العناصر تختلف قيمتها ودرجتها باختلاف النصوص ، مما دعا النقاد أن يضعوا لكل عنصر منها مقاييسه النقدية المعروفة ، فإذا نحن قرأنا للبحرئ قوله :

شواجر أرماح ، تقطع بينها شواجرُ أرحامٍ ، ملوم قطوعُها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
استطعنا أول كل شيء أن نشعر بالحسرة التي سيطرت على نفس البحرئ حين أنشأ هذا الشعر ، وهي الحسرة على شقاق يقع بين الأقارب ، قد يعقب الندامة والأسى ، وهذه الحسرة هي التي تسمى العاطفة ، Emotion ، وهذا العنصر يعد أهم عنصر أدبي .

وهذا العنصر نفسه إنما أثاره في نفوسنا هذه الأرماح المشتجرة التي تمزق الأرحام ، ثم هذه الدماء تسيل في الحروب ، ثم الدموع تفيض ندامة . وهذه الوسائل التي ذكرنا تسمى عنصر الخيال ، Imagination ، وهو القائم في الأدب

العربي على الفنون البيانية ، وبعض الفنون البديعة كذلك ، ولكن هذه العاطفة لا تثار في النفس إلا من حقيقة واقعة خارجية تطرأ على الشاعر ، أو داخلية ناشئة عن تفكير مباشر ، وهي هنا : أن قتالا وقع بين حيين متقاربين من شأنه أن يولد العداوة والبغضاء ، فهذا العنصر يسمى الفكرة « Thought » ، أو الحقيقة وهو الذي يسميه ابن قتيبة « المعنى » ، حين يعرض لشرح الشعر .

وأخيراً هذه العبارات اللفظية التي تسمى اللفظ عند قدمائنا ، والتي تسمى عند الفرنجة أحياناً « Diction » ، أي العبارة وقد تسمى الصورة « Form » أو الأسلوب « Style » . هذه هي العناصر الرئيسية الأربعة التي ينحل إليها الأدب في رأي النقد الحديث ، وليس يفرق النقد في قيمتها من حيث تعاونها جميعاً في التأثير الأدبي ، وإن كان العنصر اللفظي وسيلة لنقل المعنى وتصويره ، إلا أنه لا ينقص في درجته عن سائر إخوته . ومن هنا ترى أن كلمة المعنى عند الجرجاني مثلاً تقابل كلاماً من العاطفة والفكرة والخيال عند المحدثين من النقاد .

(٥)

فإذا اتخذنا هذا الأصل الحديث مقياساً لنقد رأي هذين الإمامين والفصل بينهما في هذا الموضوع الخلاف ، كان من المعقول إنصافاً لهما وللحق التاريخي والفني أن نقر ما يلي :

(١) يقف ابن قتيبة في فهم المعنى عند الحقيقة الساذجة ، أو المفهوم الحرفي للشعر ؛ وهذا يعد في النقد تصوراً معيياً في فهم الشعر وسلبه ألزم خواصه الأدبية ، ولا سيما إذا كان هذا القصور يمس ناحية العاطفة ، التي هي العنصر الأول في الأدب عامة ، وفي الشعر خاصة . وهذا هو ما يفرق بين الأدب والعلم ، إذ كانت الحقائق فيه أهم الأركان وأولها بالاعتبار .

(٢) لم يكن ابن قتيبة دقيقاً فيما ذكره فارقاً بين الضرب الأول والثاني ، لأن أبيات الهية لا تحتوى شيئاً من الحقائق الداخلة في باب الحكمة مثلاً ، وإنما هي أوصاف تنتهي إلى عاطفة الهية والاحترام ، وكذا الشأن في وصف الشيب

للفرزدق ، إذ ينتهى إلى إعجاب بهذه الصورة الحسية التصويرية ليس غير ، وهو داخل عنده فى باب المعنى الجيد .

فإذا انتقلنا إلى هذا المثال الثانى الذى كان مثار النزاع بينه وبين الجرجاني وجدناه يجمع إلى جمال اللفظ ، وحسن الخيال ، ورقة العاطفة فكرة — أومعنى — كآيات الهية والشيب التى عدتها مثالا لجودة المعنى ؛ فهل هناك فرق بين مثاليه للضرب الأول والثانى ؟ !

(٣) ومع ذلك فإذا وقفنا مع ابن قتيبة عند هذا البيت :

ماعاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

الذى يقول فيه : « هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرواق » وجدنا أن قلة الماء والرواق — التى معناها فى التعبير الحديث ضعف جمال الأسلوب — ناشئة فى الأصل عن هذا المعنى الذى يعتز به ، إذ هذا المعنى حكمة من الحكم التعليمية ، وهذه الحكمة التعليمية تجعل الشعر أقرب إلى النظم ، وتسلبه شيئا من صدق الشعور القوى ، وهذا الشعور له دخل كبير ، بل هو السبب الأول فى جمال الأسلوب . على أن صلة الحقائق والحكم بالشعر لها حد دقيق فى فن النقد لا نحب الإطالة فيه ، وإن كان هذا لا يمنعنا أن نشير هنا إلى أن هذه الحقائق إنما تدخل الشعر لتخدم العاطفة ، وتبعث فيها حياة تعينها على الخلود .

(٤) هذا القصور الذى شهدناه عند ابن قتيبة قد برىء منه الجرجاني ، واستطاع فى درسه هذه الآيات — آيات الحج — أن يظفر بما فيها من مناحى الجمال الفنى وأن يستخرج منها أسباب هذا الجمال ، أو بعبارة حديثة ، استطاع الجرجاني فى حدود معارف عصره أن يحلل هذه الآيات إلى عناصرها الأدبية : من فكرة وعاطفة ، ولفظ وخيال ، وليس من شك أننا نوافقه على ما رأى من غير تحفظ كما يقول المحدثون .

(٥) والنتيجة التى نصل إليها من هذا البحث السريع هى أن كلا من اللفظ والمعنى له قيمته فى جمال الأدب ، وأن اللفظ فى الأدب يقابل ألحان الموسيقى وألوان التصوير ، فكما أن جودة الصورة وجمالها ، وتناسق الدور الموسيقى وتأثيره

إنما تكون باختيار الألوان وتناسبها ، وتأليف الألحان وحسن تركيبها ، كذلك الشأن في العنصر اللفظي في باب الأدب ، على أن هناك مسألة دقيقة يجب أن يلتفت إليها النقاد والمنشئون : هي أن جمال الأسلوب وقوة ووضوحه ، إن هي إلا صفات للمعنى قبل أن تكون للفظ ، وإطلاقها على اللفظ يعد من باب المجاز ، بل هناك ما هو أبعد من ذلك ، فإن الباحثين ينتهون إلى أن هذه الصفات تعود إلى نفس المنشئ كاتباً أو شاعراً ، فالوضوح في الأصل ليس إلا وضوح المعنى في ذهن الكاتب ، والقوة ناشئة عن قوة شعوره ، وأما جمال الأسلوب فصورة لذوقه الجميل .

وقبل أن أترك القلم أحب خالصاً مخلصاً أن ألفت نظر الذين يدرسون هذه الكتب القديمة إلى أن يحرصوا على ما يوجد بها من ذخائر نفيسة ، وأن يجتهدوا لعلمهم يرون فيها كثيراً من هذه الأساليب والقوانين العلمية والفنية الحديثة ، ولا يغضبهم أن يعثروا بها متفرقة مضطربة . فإن ذلك من طبائع الرقي الاجتماعي والعلمي ، وإذا فلسست شاذاً عن هذا القانون إذا رأيت الجرجاني في القرن الخامس الهجري يتحدث عن عناصر الأدب كما يتحدث عنها نقاد القرن العشرين ؟

أحمد الشايب

